بحث عام | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 18 ديسمبر 2018

فلسفة الدين
بين تاريخية المعتقدات ودنيوية المقدس

زهير الخويلدي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018
All rights reserved © 2018

الملخص التنفيذي:

ليس المقصد من بناء فلسفة الدين بلورة النقد التاريخي للكتب المقدسة، ولا التفسير العلمي لتبني المعتقدات، بل إبراز الوظائف الجمالية والأخلاقية والمعرفية التي يمكن للوعي الديني القيام بها عند الرأي المشترك. زد على ذلك، لا تبالي فلسفة الدين بالتمييز بين الممارسة الخاطئة والممارسة الصائبة للطقوس والشعائر والعبادات ولا تركز على غياب التدين عن الوجود الاجتماعي أو حضوره بشكل لافت في الواقع اليومي، بل تبذل قصارى جهدها من أجل التعرف على العناصر الطبيعية والمكونات الثقافية والأبعاد التعبيرية التي تتضمنها التجربة الدينية، وتسمح برسم الحدود بين الدين الوضعي والدين الطبيعي والدين المدني. فما هي التحولات المعرفية والتطبيقية التي نقلت فلسفة الدين من النقد التاريخي إلى النظرة العلمية؟

استهلال:

«كل مجتمع بشري هو تشارك من أجل بناء العالم، والدين يحتل مكانة مميزة في هذا التشارك».[1]

إذا كان النظام الاجتماعي يؤثر بشكل كبير في الحقيقة الموضوعية للشخصية الفردية، وإذا كانت الحياة الاجتماعية تقوم على مسارات التفاعل والتكامل بين الذوات والمجموعات، فإن الفضل يعود بدرجة كبيرة إلى العامل الديني من حيث هو مصدر النظام في العالم الإنساني وأصل تلبية الحاجة إلى الدلالة هو الذي يمكن المجتمع من مواجهة الفوضى والجزع وكبح العنف وامتصاص الغضب؛ وذلك عن طريق الوظيفة التربوية للمقدس، ومن خلال قيمة التضامن بين الناس أثناء مواجهة خطر الموت وتسويغ استمرار الحياة.

بيد أن ظهور الفوارق بين البشر وبروز الشر على مسرح التاريخ، وتزايد الظلم الذي يتعرض له البشر وارتباط العامل الديني بظاهرة الاغتراب التي يمكن أن تتعرض لها الكائنات البشرية من الناحية النفسية والاقتصادية أثناء العمل، قد أدى إلى التشكيك في العدل الإلهي واستنقاص قدرته على مساعدة المحتاجين وتمكينهم من بلوغ السعادة المرجوة في الدنيا، وربط التدين بالوعي الزائف والاعتقاد بالنية السيئة والنفاق.

إذا كانت الفلسفة تنبثق دوما من لغز الوجود، وتولد من الدهشة أمام عظمة الكون وروعة المناظر الطبيعية، وتتطور عبر التاريخ من خلال تكيف العقل مع الواقع وبحث الفكر عن التفاعل بين الكلمات والأشياء، فإن فلسفة الدين تبحث عن جواب لسؤال: لماذا يعيش المرء؟ وتهتم بتأمل معنى الحياة وتحدد المنزلة الرفيعة التي يحتلها الكائن البشري على المستوى الفردي أو على الصعيد الجماعي ضمن الوجود في العالم.

كما ترنو فلسفة الدين إلى أن تكون تفكيرا نقديا في الماهية المفقودة للدين في الواقع الاجتماعي، وتفتش عن أسباب هذا الإهمال، وتحاول أن تكشف عن تحول التجربة الدينية إلى ممارسة للاّمعقول العنيف والكاذب.

من وجهة نظر المنهج، تشير فلسفة الدين في معناها المتعالي إلى دراسة شروط إمكان التدين عند البشر، ومن وجهة نظر المحتوى وفي معناه التاريخي تهتم بالتجربة المعيشة والبعد المتعين من السلوك الديني.

1 Berger Peter, *la religion dans la conscience moderne,* essai d'analyse culturelle, 1967-1969, traduction de l'a - glais par Joseph Feisthauer, édition du centurion, 1971, p23

من جهة أخرى، تتوقف الفلسفة الدينية عند القوة التي يظهر بها الديني في الراهن، والتي لا يمكن لأي فكر جاد إنكارها وإغفال تجلياتها، وتعمل هذه الفلسفة الدينية كذلك على تقصي عوامل هذه العودة الساطعة للأديان والمعتقدات والآراء المرتبطة بالظواهر القدسانية، وتحاول معرفة خلفياتها وتأثيراتها وحدودها. لكن ما الفرق بين فلسفة الدين والفلسفة الدينية؟ وكيف يمكن التمييز بين تدين فلسفي وتفلسف ديني؟ أليس كل فلسفة تتضمن بالضرورة موقفا اعتقاديا؟ وألا تتناول الأديان من جهة النص والسياق رؤى فلسفية؟ متى تشكلت فلسفة الدين بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ وهل حدث ذلك منذ القدم أم في الفترة الحديثة؟ ولماذا انتظر الفكر الفلسفي انبلاج العصر ما بعد الحديث، لكي يتكلم دون خجل أو تقية عن أمور الديانة والقداسة؟ هل كانت الموانع ذاتية تخص خمول الفكر الديني نفسه أم تتعلق بالمواجهة الجذرية التي قادها العلم ضده؟ وكيف أدى اعتماد المعرفة الفلسفية على النظرة العلمية إلى تجاوز المسألة الدينية جملة وتفصيلا؟ وإلى أي مدى تمكن العلم بصورة فعلية من تخطي العتبة الدينية؟ ما هو البديل الذي يمكن التعويل عليه مكان الدين؟ وهل يدور هذا البديل في فلك الرؤية الفنية والأدبية، أم إنه يتم تهيئته وإعداده داخل حاضنة فلسفة الدين؟ وأية فلسفة تكون في مصالحة مع الدين؟ وأي دين يكون موائما للفلسفة؟ وهل يمكن تسويغ قيام فلسفة بلا دين وفي المقابل القبول بدين لا يمنح الفلسفة حق الوجود؟ أليست الفلسفة مع تعدد الأديان وحرية الضمير؟ وألا يسمح الدين النيّر بالاشتغال الإنساني على التفلسف الأصيل والاجتهاد العقلاني من أجل تدبير الكون؟

ليس المقصد من بناء فلسفة الدين بلورة النقد التاريخي للكتب المقدسة ولا التفسير العلمي لتبني المعتقدات، بل إبراز الوظائف الجمالية والأخلاقية والمعرفية التي يمكن للوعي الديني القيام بها عند الرأي المشترك.

زد على ذلك، لا تبالي فلسفة الدين بالتمييز بين الممارسة الخاطئة والممارسة الصائبة للطقوس والشعائر والعبادات ولا تركز على غياب التدين عن الوجود الاجتماعي أو حضوره بشكل لافت في الواقع اليومي، بل تبذل قصارى جهدها من أجل التعرف على العناصر الطبيعية والمكونات الثقافية والأبعاد التعبيرية التي تتضمنها التجربة الدينية، وتسمح برسم الحدود بين الدين الوضعي والدين الطبيعي والدين المدني.

فما هي التحولات المعرفية والتطبيقية التي نقلت فلسفة الدين من النقد التاريخي إلى النظرة العلمية؟

1- الحاجة إلى الدين ومعنى الحياة:

«لم يتم تعريف الدين بواسطة اعتقاد جماعة لعدد معين من الوثوقيات، وإنما بواسطة علاقة إستيطيقية مع الأفكار وتعاليها».[2]

يقدم الدين أجوبة قوية وتحليلات مقنعة بالنسبة إلى الناس العاديين عن سؤال معنى الحياة والغاية من الوجود الدنيوي، ويحل معضلة الأصل الذي خرج منه العالم الأرضي والمصير الذي ينتظره والهدف السامي منه.

إذا كانت بعض النظريات تقر بأن خلق الكون جاء بمحض الصدفة ونتيجة اختلاط عناصر سابقة، وامتزاج مواد عضوية وكيميائية متقدمة في الزمان في وسط طبيعي ملائم بعد حدوث تكثف وتخلخل وتشاكل بينها، فإن الأديان تنطلق من فرضية أن الله من حيث هو موضوع أسمى للعلم يتمتع بصفة الديمومة وتقر بحقيقة وجوده بدل عدمه وتثبت عملية خلقه للكون ومنحه الكائنات نعمة الحياة بغية تعمير الكون واستصلاحه.

بهذا المعنى، أوجدت الأديان رؤية تفسيرية للتجربة الحياتية لدى الكائن البشري تقوم على الاعتراف الحيوي بالمسار المنظم والهادف، وتتكون من جملة من التحولات تنطلق من أصل واحد، وتنقسم إلى عدة فروع وتحاول بلوغ غاية مشتركة بإتباع عدة مسارات تتراوح بين الاختيارات العاقلة والحتميات المقدرة.

والحق أن ما يمنح الحياة الإنسانية معنى وقيمة هي تلك القوى الطبيعية المخفية التي تحركها علل بعيدة من جهة، وتلك القدرات المفارقة للطبيعة وذات الصفة الغيبية التي يذكرها التاريخ الأسطوري والمعتقد الديني. كما أن الشيء الذي يجعل من هذه الحياة تجربة جديرة بالتقدير والإعجاب هو حيازتها على قيمة متعالية وارتباطها بفكرة سامية وتبعيتها للقوى المفارقة وخضوعها لنظام ماورائي وترتيب رباني وسلطة إلهية.

إن الأجوبة الدينية عن معنى الحياة هي تفسيرات روحية تربط الوجود الدنيوي بقوة أخروية عليا، وتجعل الأحداث التاريخية تحت طائلة التقدير والتحكم والتوجيه من سلطة إلهية ومحركات غيبية بصورة عامة.

لكن توجد أجوبة معلمنة عن معنى الحياة ترفض الوجود المتعالي، وتحرص على تنمية الشرط الإنساني بالعمل على تحقيق مطلب السعادة الدنيوية في مقابل النعيم الأخروي الذي تعد به الأديان بعد الخلاص من

2 *Notions philosophiques,* religion, dirigé par sylvain Auroux, partie 2, éditions PUF, Paris, 1990, p2227

المعاناة والتطهر من الذنوب ومقاومة كل أشكال العذاب واللاّعدالة وعتق البشر أنفسهم من الجهل والظلم والغفلة والاغتراب بواسطة الصحوة الفكرية واليقظة الروحية والمطالبة باحترام كرامة الذات البشرية.

بطبيعة الحال يرتكز الجواب العدمي عن سؤال معنى الحياة على مسلمة يبقى الوجود معها معلقا من جهة الحكم، ويعاد طرح السؤال في كل مرة بصورة مفتوحة بلا حقيقة ثابتة ويظل الإنسان العارف واعيا بجهله وباحثا عن حياة جيدة ومدركا الشروط المحددة لوجوده ومبصرا للأمر المتكتم الذي يجعل ذاته سرا ملغزا.

هكذا تطمح فلسفة الدين إلى التفكير في الدين من جهة ماهيته وجوهره وفحوى رسالته وجدوى وجوده، ولا تقتصر على اتخاذ مسافة نقدية من الاعتقاد، مثلما تقوم بالتأطير الفكري لأي موضوع آخر على غرار اللغة والحق والفن والثقافة والشعر والأدب والمجتمع، وإنما تنخرط في التجربة الدينية ذاتها وتغوص في المعتقد من الداخل محاولة سبره وفهمه، وتميل في بعض الأحيان إلى إضفاء القداسة على الأفعال والأشخاص والأحداث من خلال اتباع طريق الحكمة الإلهية، وتتعامل أيضا مع العناصر الروحانية على أنها مقامات يجدر بالمتدين تعلم مقتضياتها وأحوالها وتسلق درجاتها العرفانية والتدرب على اكتساب إشراقاته القدسية.

تبعا لذلك، تحرص فلسفة الدين على بث روح التفاؤل لدى المؤمن، لكي يقبل على الحياة ويكف عن آفة الانزعاج من الفناء، وينتظر المصير الذي يترصده بعد حلول الموت بقلب مليء بالأمل والرجاء ويجمع بين التوكل على الله والتعويل على الذات؛ وذلك من خلال الاعتقاد بالعناية الإلهية والحرية الإنسانية.

والحق أن الخوض في نظرية الدلالة الثقافية للتجربة الإيمانية من جهة البحث عن تفسير وظيفي للدين ضمن العلاقات الاجتماعية يفضي إلى طرح مشكل الهدف السامي من الحياة ومعنى التدين ونقيضه[3].

لا تملك الحياة معنى إلا إذا كانت مرتبطة بغاية، وكأن أفعال الإنسان تستهدف في مجموعها مقصدا نبيلا ولا يكون العالم موحدا على الصعيد الوجودي ومنسجما في المستوى المعرفي، إلا إذا أوجده خالق واحد وأخرجه من العدم إلى الوجود دفعة واحدة وأسكن فيه البشر وسخر له كل ما في الكون من أجل التعمير.

على هذا المنوال، يتوجه الدين إلى محاربة الشر والظلم والذنب؛ وذلك باستجلاب التوبة وطلب الغفران وتجنب الكراهية والتقليل من العداوة وتقوية مشاعر المحبة والإكثار من المصاحبة وإيثار ذات الأغيار. كما يصادر على وجود الأسرار في الكون وامتلاء الحياة بالمعجزات من أجل تقديم الرحمة على القسوة

3 Voir André Comte-Sponville, *l'esprit de l'athéisme, introduction à une spiritualité sans Dieu*, édition Albin Michel, Paris, 2006, 220p.

والتدبير الإلهي على التخريب البشري ووضع طيبة الأفراد ضمن الأخلاق التعاونية لدى المجموعة وتحويل المعتقدات إلى عامل تقدم وجعل المؤسسات الدينية حواضن تسامح وتعايش وخلايا خير مبرور.

هكذا يحتاج الإنسان إلى الإيمان الديني من أجل تدارك محدودية العقل على الصعيد المعرفي والتشريع على المستوى العمل للقيم والمعنى، ومن أجل التأسيس الأنطولوجي للوجود الإنساني والنهل من المبادئ الميتافيزيقية للحياة وتحميل البشر من الناحية المعيارية مسؤولية سكنهم في العالم والمراهنة على وعيهم.

2- مكونات الحقل الديني:

«كل الجنات المفقودة لا يمكن العثور عليها الا في المحنة»[4]

تتناول فلسفة الدين موضوعا شاسعا وحقلا مترامي الأطراف؛ وذلك بالنظر إلى المجالات التي تغطيها التجربة الإيمانية نفسها وبالخصوص تضمنها للمطلق واللانهائي والروحي والإلهي والمقدس والأبدي.

على هذا الأساس، تتكون الظاهرة الاعتقادية من الإيمان والمحبة والسلام والصدق والطهارة، وتبعث رسائل طمأنة وتسامح نحو المجتمع وتساعد الفرد المؤمن بها على التواصل مع غيره من الأفراد ومصالحة ذاته.

من هذا المنطلق، يشهد الحقل الديني بروز مكونات ذاتية وعوامل شخصية تتوقف على المتدين ومزاجه وانفعالاته، وكذلك الاحتياج إلى توطيد الصلة بأبعاد كونية ومعطيات موضوعية تتمثل في الوجود في العالم والتعطش إلى المطلق والتعلق باللانهائي، وتمثل الأزلي والتشبه بالذات الإلهية على قدر الطاقة الإنسانية. علاوة على ذلك تقوم التربية الدينية التي يتلقاها المؤمن على جملة من المبادئ النظرية والممارسات الاجتماعية، وتهتم بالطقوس وتؤدي الشعائر، وتلتزم بالفرائض وتنخرط في العبادات بصورة يومية من جهة، ولكنها تفترض مبادئ عامة مقبولة حول الله والإيمان، وتتضمن عناصر عقلانية منطقية تتطلب الشرح والتفسير فحسب، وعناصر غير عقلانية ورمزية تحتاج إلى المزيد من التأويل من جهة أخرى.

بيد أن الدين اليوم أصبح موضوعا مفضلا من قبل الدارسين والمختصين وصار مجالا تتقاذفه الانفعالات الحادة والأهواء العنيفة، وتتدافع فيه العواطف الجياشة والتأثيرات الصادمة وتتصارع حوله الفئات والدول.

4 Nabert Jean, *essai sur le mal*, édition PUF, Paris, 1955, p102

على هذا النحو، ترصد فلسفة الدين هذا المعطى المستجد وتلاحق مختلف الديناميكيات التي تفجرت من استعادة المقدس لهيبته وتتعقل المراوحات التي وقع فيها العامل الديني بين الجوهر والمظهر، وبين التنازع والتصالح وبين الاغتراب والانعتاق وتخوض في ينابيع الإيمان وأشكال التدين religiosité ومظهر الروحانية spiritualité وتقارن بين مختلف الممارسات التعبدية والخبرات الموروثة والتجارب الحية، وتتوقف عند ظاهرة كثرة الملل والنحل وتعدد المعتقدات وفق تعدد اللغات عبر التاريخ، وتجعل من واقع تنوع الثقافات وتضارب التأويلات وتعارض الاجتهادات قضية مركزية وتحوله إلى مشكلة هرمينوطيقية.

في الواقع تهتم فلسفة الدين ب:

- الإيمان الشخصي، القناعة الفردية، أو الجانب الاعتقادي الحر؛

- التصور الإلهي: إله واحد مفارق وأبدي أو آلهة متعددة ومحايثة من صنع الإنسان؛

- طقوس وشعائر- ممارسات فردية أو جماعية، تجعل الكلي متجسدا في الكلي؛

- قواعد أخلاقية وتوجيهات تربوية – أحكام عامة وتشريعات تفصيلية خاصة بالسلوك تظهر في صورة أوامر ونواه، وتصاغ في شكل وصايا وتعاليم ضمن مدونة يتم توارثها عبر التقليد؛

- مؤسسات رسمية تحرص على تنظيم الشأن الديني، وتقوم على هرمية معينة وتراتبية مضبوطة، وتتكون من قادة ومريدين وتمارس مهمتها وفق سنن وعادات تحرص على تلقينها وفرضها على الأتباع ومن واجب المتدينين الموافقة والاحترام والتقيد بها دون إنقاص أو استهانة؛

- معتقدات وثوقية وتصورات إطلاقية وحقائق بديهية وأحكام ثابتة وأركان قارة تشكل النواة الصلبة للمقدس، ويتم اشتقاق كل الجزئيات والتفاصيل منها؛

- نصوص مقدسة وكتابات مرسلة وعهود محفوظة من قبل الذاكرة الرسمية وعادات متكررة عبر التاريخ تمارس نوع من النفوذ وتمثل مرجعية روحانية وتتصف بالهيبة والوصاية على كل سلطة.

- تؤدي الظاهرة الدينية عددا من الوظائف وتملأ الأماكن الفارغة في الاجتماع البشري، وتعطي للبعد التشاركي والمجاورة في المكان وفي العمل إطارا روحانيا يسهل أهمية الوعي بالغير.

على هذا الأساس، تتوزع الدراسات الفلسفية في الدين بين النقد التاريخي للكتب المقدسة والنظرة العلمية للشرائع وبين المقاربة التحليلية للغة الدينية والمقاربة التجريبية الاستقرائية للخبرات، وبين الحكم المنطقي على القضايا الإيمانية والتفسير السوسيو-بسيكولوجي لتشكل العامل الديني ضمن الشخصية البشرية فردا ومجموعة. بطبيعة الحال، يعزز التفكير الفلسفي في الدين سلطته على المجال الأفقي للحياة البشرية بتثبيت العلاقة العامودية بين الإنسان والله، وبين الأرض والسماء ويؤسس كونية المقدس من خلال الاعتراف بالدَين dette الذي يشعر به البشر الفانون تجاه الآلهة الخالدة والعناية التي توفرها لهم في الدنيا والآخرة.

3- مقاربات فلسفية في الدين:

«الدين بالنسبة إلى كانط هو مجموع من المؤسسات والآراء أكثر من أن يكون جسما من المعتقدات»[5]

إذا كانت فلسفة الدين تشتغل على النقد العقلي للدين الوضعي، وتشير إلى مجموعة من البحوث التي تهتم بتفهم الدين في حد ذاته، فإن الفلسفة الدينية تتضمن جملة القضايا الإيمانية على غرار الله والعالم والروح وتتبع تشكل هذه الظواهر، وترصد دلالة تطورها عبر التاريخ وجملة المقاصد التي تسعى إلى استهدافها.

ما توفره التجربة التاريخية وما يقره العقل أن الدين يتكون من قطبين؛ يظهران أساسيين ونوعيين هما:

- بعد نظري تصوري ينطوي على الاعتقاد والإيمان.

- بعد عملي تعبدي يحتوي على الطقوس والمناسك.

من هذا المنظور، ينبني الدين على علاقة مع الكون تتميز بالنظام والانسجام، وتمنح الوضع البشري المنزلة وترتقي به إلى مستوى الحكمة والتدبر والتبصر، وتساعده على ربط صلة مباشرة بينه وبين الكائن الأول. كما يعطي الإيمان بوجود الله واليوم الآخر وخلود الروح معنى للحياة الإنسانية، ويترجم ذلك كتابيا بواسطة الرموز والسرديات والمجازات التي تضمنتها النصوص الاعتقادية والكتب المقدسة والمرويات المنقولة، والتي تساعد المتدين على الانتماء الديني وعلى التكلم مع الله والتفكر في الكون ولقاء الغير بشكل أصيل.

اللافت للنظر، أن الدين ظاهرة كونية ومسألة شاملة ومبحث عام، والآية على ذلك ما يلي:

5 Bruch Jean-louis, *la philosophie religieuse de Kant*, Aubier Editions Montaigne, Paris, 1968, p35

- الإنسان لا يوجد بحق دون أن يكون إلى جانبه شكل من أشكال التدين، ويمارس ضربا من ضروب الاعتقاد، ويقوم بالتوجه نحو موضوع وجوده بالتساؤل ويفترض حياة روحانية تتجاوز البعد المادي الذي يكون عليه.

- الأديان موجودة في كل مكان وفي غالبية الحضارات ومعظم المجتمعات وبصيغة الجمع، وليس بصيغة المفرد، والإنسان نفسه كائن متدين ويحتاج دائما إلى الاعتقاد.

- يقدم الدين للإنسانية خلاصا جماعيا ويرنو بها إلى مرتبة الوجود الأشرف، ويحمل المطلق إلى كل العناصر والأجزاء ويعبر عن اللانهائي القابع في كل نفس دون تمييز من جهة الحق أو الواقع.

لقد خضعت الظاهرة الدينية منذ القدم إلى العديد من الدراسات والبحوث، وتمت معالجتها بواسطة عدة مناهج:

إذا كانت المقاربة الذاتية للدين تعتبر الإيمان فرضية قابلة للإثبات أو النفي، وتركز على تقصي المصادر التاريخية والأصول الثقافية للمعتقدات الموروثة، وتتعامل مع تشكل ظاهرة الوعي الديني بوصفها شأنا خاصا وتجربة شخصية ترتبط بالأذواق الفردية والميولات والرهانات التي يسعى البعض إلى استهدافها، فإن المقاربة الموضوعية للدين تركز على اليقين الإيماني وإطلاقية الحقيقة الاعتقادية ومصداقية البعد الأزلي فيها، وتحرص على تقديم جملة من الحجج والبراهين التي تدعم المبادئ الثابتة والأحكام الكلية التي ترتكز عليها الاعتقادات، وتجعلها دائمة من جهة زمانية الوجود، وممتلئة من جهة فضاء التجربة المكانية.

إذا كانت المقاربة الماهوية للدين تهتم بالجوهر وليس الأعراض وبالمفهوم وليس الرسوم، وتشتغل على ضبط المقومات والحدود والخصائص والدعائم والأسس والقواعد التي تجعل من الإيمان تجربة مستقيمة، فإن المقاربة الوظيفية تتناول الجانب الاستعمالي للدين، سواء في السياسة أو في مجالات الثقافة والاقتصاد، وتبحث في دوره في المجال الاجتماعي، وتأثيره على البعد النفسي للسلوك وحاجة الإنسان إليه في الحياة.

في الأزمنة الغابرة في الحقب التي سبقت تطور العلوم، أدى الدين دورا معرفيا وقدم تفسيرا عاما للظواهر الكونية، ووجد إلى جانب التصورات السحرية والمعتقدات الأسطورية على نفس الأرضية المعرفية، ثم قام بمهمة تربوية حساسة للنوع البشري ساعدته على الخروج من الوحشية والهمجية إلى الحرية والمدنية وساند الواجب الأخلاقي، وألزم الناس باحترام القوانين واتباع القواعد القيمية التي تنسجم مع نظام الكون، وبرر ذلك بالعودة إلى قواعد الاستحقاق والجزاء من جهة الثواب عند فعل الفضيلة، والعقاب عند ارتكاب الرذيلة، ولقد اختلط الشعور الديني بالإحساس بالقيمة المعنوية للطبيعة البشرية من جهة الوعي بالمسؤولية.

إذا كان الدين يلعب دورا تبريريا محافظا للسلطة الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية، ويعيد إنتاج النظام القائم ويضفي المشروعية على أجهزته وطرائق اشتغاله وتصوراته، فإنه يمثل كذلك انعكاسا في المخيلة البشرية للأوهام التي تتعلق بالوضع الإنساني، وتتشكل عن طريق الخوف من الموت والحاجة إلى الحماية، ويحتمي بها البشر الفانون إخفاء للضعف وتسترا على التناهي والهشاشة ورغبة في البقاء والخلود.

بهذا المعنى، يصدر الدين عن القلق أمام ظاهرة الموت التي يعيشها المرء من خلال تجربة الآخر، والتي يعجز الوعي البشري عن فهمها، وتحمل حدث الفناء الذي يداهمه فجأة ويقع في إنتاج الأوهام تشبثا بالبقاء. من ناحية، يشجع الدين على تبني النزعة الفردية ويدافع عن الملكية الجزئية، ويحث على احترام الشخص الإنساني ويمنح الحياة الخاصة أهمية كبرىّ، ومن ناحية أخرى يشرع الاندماج الاجتماعي ويمنح الجماعة الروحية مكانة أساسية في وجدان الأفراد، ويغذي لديهم مشاعر المحبة والمودة والألفة والتعاون والتكافل.

كما يمكن التوقف عند الطابع الاحتفالي للدين والإشادة بما يقوم به من تخليد للذكرى في مستوى الطقوس الفردية والشعائر الجماعية، وخاصة في المناسبات الدينية وفي الأعياد الرسمية، والتي تحاول إعادة إنتاج العناصر المقومة للتجربة للدينية في حد ذاتها في كل مرة بصورة مستنسخة وتسعى إلى تحقيق الطهرية.

بطبيعة الحال، يقوم الدين بملء الحاجة إلى الاعتقاد التي يشعر بها كل كائن بشري، ويحرص على استعادة الذكريات التأسيسية للديانة التي تأتي من الماضي العتيق محاطة بالكثير من الهالة السحرية والأسطورية.

من الجلي أن فلسفة الدين قد عرفت عند التشكل لحظتين حاسمتين مازالت تأثيراتها قائمة إلى حد الآن:

- اللحظة التكوينية الأولى التي شهدتها فلسفة الدين تعود إلى الاعتراف بالظاهرة المعتقدية من حيث استقلاليتها عن الظواهر الكونية والأبعاد الأنثربولوجية الأخرى، والإقرار بالبعد الإلهي والانحدار من الوجود المفارق للمقام الأرضي التي تظل أنظار البشر منشدة إليه وأنفسهم معلقة عليه. ولقد ترتب عن ذلك الفصل الأنطولوجي بين الآلهة الخالدة والبشر الفانين والوسائط التي تربط بينهم. ولقد لعب الدين دورا في إعادة إنتاج التمييز الميتافيزيقي بين عالم الألوهية الباقي وعالم البشر الداثر. فإذا كان الدنيوي يخضع للصيرورة الزمنية، ويندرج ضمن منطق التغير والانقلاب، فإن الإلهي يجسد قدرة عليا، ويمنح النظام والاستمرارية للكون والحفظ للأشياء ومنبع الفضيلة والخير.

- اللحظة التكوينية الثانية التي عرفتها فلسفة الدين هي التي دفعت النقد التاريخي للتراث الأسطوري وشهدت مراجعة علمية متأنية للنصوص المقدسة، وحاولت بناء معرفة عقلية بالإلهي وفق مقاربة منطقية وحرصت على تثمين البعد الدنيوي التاريخي والبعد الأناسي المحايث في التجربة الدينية.

لقد ظهرت بعد تشييد تصور عقلاني عن الديني عملية تخفيض الاعتبار الذي كان يتمتع به الإلهي بصورة تدريجية، وفي المقابل بدأت عملية مضادة ارتفعت بمقتضاها قيمة الإنساني وأصبح يحتل مركز الصدارة. ومن هذا المنطلق، لم يعد الدين مصدر خلاص للإنسان، بل أضحى سببا لاغترابه وعاملا من عوامل بؤسه.

والحق أن مصطلح نزع الأسطرة أو خلع الهالة démythologisation عن القداسة الذي وقعه لأول مرة في تاريخ الأفكار عالم الأديان الألماني بولتمان Bultmann في بداية القرن العشرين قد تجسد معناه قبله مع كل من أرسطو وشيشرون وابن رشد وموسى بن ميمون وسبينوزا وكانط وليسنغ وفيورباخ وماركس وفرويد وشلايرماخر وبرجسن وأوتو وبيرديائيف وهيدجر وتيليش وألياد وغادامير وريكور، حينما تم الاشتغال على غربلة العناصر الخرافية والمعطيات الأسطورية والأبعاد السحرية التي كانت موجودة في التجربة الدينية، وتشكل المظهر الزائف للوعي الديني وتوقعه في الوهم والاستلاب وتقلب تصوره للعالم.

لقد أفضت عملية نزع الهالة إلى انتصار الفلسفة وما تتضمنه من حجة منطقية وحقيقة عقلانية وبرهنة موضوعية وحكمة عملية على الدين والعمل على دمج الإيمان بالوجدان والتكامل بين القلب والعقل من أجل تحقيق السعادة للفرد والمدينة والإقرار بأولوية النظام الحجاجي البرهاني على حجية النص والتراث.

لقد أدى الجمع بين نظامين من المعرفة هما النظام الزمني والنظام الروحي الى قيام حكمة دينية تستمد مشروعيتها من الوحي وتختلف عن الحكمة الدنيوية التي تتأسس على العقل والتجربة، وتستمد مشروعيتها من إدراك الواقع الخارجي باستعمال جملة الملكات المعرفية والبحث عن وحدة الحقيقة وتطابقها مع العالم.

إذا كانت مهمة الحكمة الدينية هي تفسير النصوص المقدسة وتأويل الأبعاد الإلهية وفهم الوضعيات الدينية بالانطلاق من منطق خاص بها وجهاز مفاهيم مستقل يميز بين القدسي والدنيوي، وبين المقدس والمدنس، فإن المعرفة العلمية والعقلانية التي انحدرت من تربة وضعية قامت بنقد جذري للدين وتصورت إمكانية وجود فلسفة بلا دين، واقتصرت على تحليل الخبرة الدينية ونقد اللغة المستعملة، واستبدلت العنف بالتسامح.

إحقاقا للحق، يمثل النظر العقلي إلى جانب الشعور بالقلب قوة إدراكية ثاقبة للمقدس الديني، ويقوم بدور المقرب من الإلهي ويساعد الإنسان على إنتاج المعنى في قلب تراجيديا الحياة اليائسة، ويجعل من الكائن مشروعا وسط عبثية الوجود الزائف، ويعول على الفعل والفهم والصفح والوعد بغية تنمية الحرية.

بطبيعة الحال، لا تقتصر مهمة فلسفة الدين على النقد التاريخي للمعطى الديني، بل تهتم بتاريخية الأنساق التأويلية للنصوص الدينية، وتخوض في طبيعة الاعتقاد وتبحث في الوظائف التي تشتغل من أجلها الأديان.

إذا كان الفيلسوف من الناحية الدينية غير محايد وغير بعيد عن الصراعات التأويلية الناتجة عن الأزمات السلطوية، فإنه من المفيد التسلح بالمقاربة الإبستيمولوجية وإخضاع عمله الفكري إلى التدقيق التجريبي.

يتمحور عمل الفيلسوف في الشأن الديني في ثلاث مهام:

- مهمة نقدية تدور حول فك الارتباط بين المعرفة والسلطة والمصلحة وإزالة الأسطرة وخلع الهالة التي أحيطت بالتصورات العقدية، وإبراز الأبعاد الدنيوية والتاريخية والجوانب البشرية للدين.

- مهمة تأويلية تتعلق بوصف التجربة الدينية من الداخل والاشتغال على اللغة التي يعبر بها المقدس عن ذاته ويتكلمها الإلهي المطلق مع الكائنات النسبية وترجمتها الى كلام بشري وتعبير تواصلي.

- مهمة تشريعية تتمثل في وضع نسق من القيم والرموز وشبكة من المعايير تمارس وظيفة التوجيه الإرشادي للكائن البشري في مستوى البناء النفسي والسلوك الاجتماعي والنشاط الاقتصادي.

4- الأديان في مواجهة العلوم:

"الدين هو رسالة خلاص تتوجه دائما إلى الإنسان من حيث هو إنسان وراء كل تميز سوسيولوجي"[6]

إذا كانت الفلسفة تمنح الدين شرعية من أجل الإجابة عن سؤال معنى الحياة، وإذا كانت حائزة على وعي بأن هذا الجواب لم يعد بيدها، وإنما تم تهجيره من دياره إلى الخارج، وصار يتجول شريدا في غربة وجوده.

6 Cotta Sergio, l'enjeu de la politique sécularisée, in *Herméneutique de la sécularisation*, aux soins de Enrico Castelli, Aubier, éditions Montaigne, 1976. p174

يعود فقدان الدين للبداهة واليقين والصلاحية إلى سيطرة العلوم على النظم المعرفة الراهنة ونمو العقلانية واعتماد المنهج التجريبي في الدراسات الحضارية وممارسة النقد الثقافي للأنساق الرمزية والبنى السردية. ولذلك تحولت المسألة الدينية من منظور الوعي التاريخي إلى قضية إشكالية، وأضحت محل تجاذبات عدة.

إن الدين نفسه صار يطرح أكثر من تحدي على الدارسين، وأصبح مليئا بالإحراجات على صعيد التفكير، ويلاقي حملة من التشكيك والاعتراض من طرف الكثير من الرافضين لفكرة إخضاعه للدراسة العلمية.

الإشكالي هو عودة الديني بقوة على الساحة العامة وغزوه من جديد أروقة الثقافة وقاعات الجامعات، وكأنه المارد الذي وجد الفرصة السانحة، ليفلت من العقال ويتخلص من القيود والظهور العلني بعد كبت طويل.

لقد انحصر تعامل المحدثين مع الظاهرة الدينية على اعتبارها لعبة رابحة يجدر المشاركة فيها، ويمكن المراهنة عليه تماما مثلما راهن باسكال على وجود الله الذي وجده يتماشى مع منطق حساب الاحتمالات، حيث آثر تجنب المخاطرة بجوده حتى لا يفقد الطمأنينة زمن الرعب التي سببته الفضاءات اللامتناهية.

لقد تم اعتبار الدين فرضية تقبل الإثبات أو النفي، حيث إذا صدقت على أرض الواقع ووفق محك التجربة فاز الإنسان بالرهان، وإذا كذبها العلم في المستقبل ودحضتها التجربة التاريخية، فإن المرء لم يخسر شيئا.

غاية المراد أن يكون التقدم العلمي قد تناول بشكل سيء العديد من التمثلات الاعتقادية للناس ومارس العنف التأويلي على المقدسات التي ظلت تمثل النواة الروحية للكثير من الخصوصيات الثقافية، ويجوز القول بأنه أحال على التقاعد العديد من الآراء الخرافية عن الكون في مستوى المصدر والمصير والغاية، ويمكن أن تكون الحداثة العلمية قد فكرت بجدية في مخرج غير مشرف من حياة البشر لقضية الإيمان ولكن الدين في حد ذاته استمر الشكل الأكثر قدرة على منح الوجود الإنساني جدوى والخزان الروحي الذي يعطي للحياة معنى، ويوجه السلوك البشري وفق ترتيب ونظام وضمن غايات كونية ومقاصد نبيلة.

علاوة على أن العلم لم يقم على تبني الإلحاد والعدمية التصور اللاّديني للعالم بشكل رسمي وكلي، بالرغم من وجود النسبية والشك والدحضانية والنقد والتفكيك ونظرية القطائع والانكسارات والفوضى والصدفة، وبالرغم من انتهاء بعض العلماء في مستوى بحوثهم إلى تفسيرات ريبية وتبنيهم الثورة بشكل جذري.

كما أن تعليق الحكم في مسار البحث العلمي لم يتحول بصورة بديهية إلى إلحاد منهجي، وإنما جزء من إيتيقا البحث ونوع من الأخلاق المؤقتة، بل إنه لم يتمكن من إزاحة الإيمان من قلوب العلماء، ولم يفرغ المجال العلمي من الاعتقاد في وجود قوى ما وراء الظواهر وعناصر بعدية إلى جانب القوى الطبيعية والمكونات المادية، وتساعد على اكتشاف القوانين ومعرفة الحقائق وتوسيع القدرة الاستطلاعية للعقل، حيث تمكن من التأليف بين الميكانيكا والتصوف وبين البيولوجيا والغائية، وبين علم الفلك والميكروفيزياء.

غني عن البيان، أن فلسفة الدين تحاول أن تؤلف بين الإلحاد والإيمان، وأن تهب إلى ما وراء الخير والشر وما بعد الحقيقة والكذب، وأن تأخذ كشوفات اللاّدينيين واختراعات الدينيين على أنها تخمينات في حاجة إلى تأييد وامتحان، وتنتبه إلى أن أهم النظريات العلمية قد خرجت من عبقرية العقول المرتابة وولدت من رحم التصورات الغيبية، وبين أحضان المعابد تحت رعاية ميتافيزيقا المقدس وبإشراف المؤسسات الدينية ذاتها.

من اللافت للتذكير بأن الأديان قد عرفت فترات ظلام وانغلاق وتعصب لعدة قرون متواصلة، وأن ذلك أثر على مجمل الحياة اليومية للبشر، وعلى المناخ الثقافي للشعوب، وترتب عنه ظهور الغلو والتشدد والتطرف، وأن الإنسانية احتاجت إلى ميلاد علوم جديدة وحدوث تطورات في المعرفة الهادفة من أجل إحداث اليقظة وامتلاك الوعي وتبني موقف تنويري، والشروع في المراجعة النقدية والتجديد الأدبي والإبداع الفكري، وتحويل البعد الديني إلى منارة تربوية وطاقة روحية تشجع الناس على الخلق الفني والابتكار الدلالي.

غاية المراد أن الساهرين على الأديان مطالبون بتغيير موقفهم الرسمي من العلماء والمستنيرين ومن الإنتاج العلمي والمحصول المعرفي، والكف عن التهكم على المبدعين والسخرية من المثقفين وتبديع المبتكرين والعمل على تشجيعهم والوقوف إلى جانبهم ومساندة مجهوداتهم بدل مهاجمة الفن والشعر والأدب والفلسفة والعقل حفاظا على السلطة بالتخندق في الصف الأول من أجل المعرفة المرحة والثقافة الملتزمة، وإفساح المجال أمام التفكير الإبداعي والنقد البناء بغية تصحيح الأخطاء وإطلاق الثورة الثقافية.

لقد تولد عن اللقاء الذي جرى بين فلسفة الدين من جهة، وفلسفة العلو من جهة أخرى تشكل مجموعة من الاختصاصات العلمية التي تعتني بالأساس بالمعتقدات والآراء والقناعات التي يرتكز عليها الدين:

- علم الأديان: يجري مقارنات ميدانية على مستوى البنية والتكوين واللغة المستعملة بين المعتقدات.

- تاريخ الأديان: يهتم بأصل الدين وفصله وظروف تشكل المقدس وميلاد الرموز ومظاهر التعبد.

- أنثربولوجيا الأديان: تجمع بين ما يوفره كل من علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي للظاهرة الدينية من تراكم للرأسمال الرمزي وتحوله إلى رأسمال ثقافي وسلطة مادية.

فما هو السبيل الأنسب للحكم على مقاصدية الظاهرة الدينية في مجموعها، ومن وجهة نظر الوعي الديني؟

خاتمة:

"الدين هو المحاولة الأكثر حماسة من أجل تصور الكون بأسره من حيث حيازته لدلالة إنسانية"[7]

إذا كانت الأنساق الميتافيزيقية تمارس الكثير من العنف على الفكر، وتمثل تهديدا ضد استمرار الفردي وإذا كانت الأحكام الإيديولوجية تتناسل وتتعاقب وتنتج نظرة ضيقة وتزيد من درجة التعصب ومن حالة التمييز، فإن وقوف الفكر عند لعبة المسوغات يتيح تنظيم الحقل الاجتماعي، ويسمح لفعل العلمنة بالقدوم الآن وهنا، ويقوي أسلحته العملية لكي يستكمل مهمته الأصلية في الدنيوة وتحقيق الانفصال التام عن البعد الديني.

لكن ماهي مرامي هذا التحول؟ وهل بإمكان الفلسفة الانفصال عن الدين بشكل تام؟ وإلى أي مدى يستطيع الدين أن يعثر على انطلاقة جديدة واستفاقة حاسمة، عندما يشرع في ممارسة النقد الذاتي ويراجع مسلماته؟

تبدو العلاقة بين الفلسفة والدين من الناحية التاريخية متشابكة ومتداخلة، وبالتالي عصية عن التدبر والفهم ولكنها من الناحية المنطقية صارت منذ "ابن رشد" حقيقة بديهية وتجربة معقولة ومرتبة بطريقة منهجية ويكفي التطرق إلى الطرف الأول، وهو الحكمة حتى يتسنى للفكر الانتقال إلى الطرف الثاني، وهو الشريعة.

بيد أن الفلسفة كانت قد خاضت قبل ذلك بكثير، خصومات عديدة مع المعتقدات الموروثة من جهة يصعب عليها قبول صلة القرابة وعلاقة الاصطحاب مع الدين، وكذلك يعسر عليها التحول من العداوة اللدودة إلى الصداقة والتعاون على البر والصدق قصد تحقيق السعادة بالفضيلة والكف عن الإثم والعدوان والرذيلة.

إذا كانت الفلسفة تتضمن العديد من المسلمات الماورائية، وتستعمل جملة من التصورات الغيبية وتوظفها في شكل أحكام مسبقة وفرضيات قبلية، فإن الدين بدوره يحمل في داخله أسئلة فلسفية وحيرة عقلية مفيدة.

7 Berger Peter, *la religion dans la conscience moderne,* essai d'analyse culturelle, op.cit.p60.

إذا كانت الأديان تقضي على التفكير وتصادر على المطلوب ومليئة بالخزعبلات، وتحتوي على الكثير من المعتقدات الغريبة التي تمت صياغتها في شكل أسرار ورموز وشطحات غامضة، فإن الفلسفة تقوم بتنسيب المعرفة وتراجع الأحكام المسبقة، وتقدم الأدلة المنطقية والحجج الواقعية على فكرة وجود الله وخلود الروح وحرية الاختيار وكلية العالم، وتدعو إلى تدبر الوجود والاعتبار من ظواهر الطبيعة وتأويل النص المقدس.

جملة القول، إن فلسفة الدين تعتني بنقد الظاهرة الدينية من حيث هي عامل تقدم تاريخي، وتحمل إلى العمارة المعرفية فهما وتوسيعا لمجال المقدس، بينما تقوم الفلسفة الدينية بالإعداد العقلي للإيمان والالتقاء بالمطلق.

بهذا المعنى، مثلت فلسفة الدين عند ظهورها وتطورها وتشكل ملامحها بصورة واضحة ومكتملة حلا منطقيا لهذه المفارقة الدينية الفلسفة التي تصادر على تلازم حضور أحدهما بغياب الطرف الآخر، وتؤكد على إمكانية إيجاد إطار معرفي يتحول فيه الزوج المفهومي دين- فلسفة إلى علاقة تكاملية للتلاقي والتوالد.

بيد أن العزم الذي يحدو العلماء في تحقيق الاستقلالية بالنسبة إلى رسالتهم المعرفية من أجل بناء النظرة الموضوعية للطبيعة والتصور المحايد للحقيقة هو الذي أعاد من جديدة فكرة الثورة في المجال الفلسفي وطرح على صعيد التحقيق مقولات العلمنة والأنسنة والدنيوة في الحقل الديني، وحرك في مستوى أرقى التجاذبات بين الفلاسفة واللاهوتيين وألهمهم مقاما تتعايش فيه فلسفة الدين والدين الفلسفي جنبا إلى جنب.

"لهذا السبب ليست الفلسفة الدينية فلسفة الدين. لقد توقف الدين، الخاضع لحكم العقل، منذ كانط والأنوار، عن الظهور كميدان محجوز، وأصبح موضوع تفكير فلسفي وولدت فلسفة الدين وتطورت مع هيجل."[8]

هكذا تحول الفلسفة المعتقد الديني إلى مجموع موحد عقلاني، وتضع أسسا متينة تستند إليها هذه المعرفة بطريقة نسقية، وتعمل على تطبيقها على الممارسة العملية بإضفاء المعنى على الحياة الدينية، وتنظيم الشأن الديني من خلال المجموع الحي للتمثلات والأحكام وللشعائر والطقوس عبر منحها عددا من الدلالات.

من المفروض أن تتوجه فلسفة الدين من حيث موضوعها ومنهجها إلى الاهتمام بالمناطق العقلية مبعدة إياها عن المناطق غير العقلانية وتعالج معضلة الشر الجذري بطريقة وافية وتتجاوز الحضور المكثف

8 Bruch (Jean-louis), *la philosophie religieuse de Kant,* éditions Aubier- Montaigne, Paris, 1968. p255

للألغاز والمعجزات، وأن تقوم بتحويل الجماعة الدينية إلى جماعة إيتيقية، وأن تعتني للممارسة الصائبة للطقوس وتحذر من الوقوع في الممارسة الخاطئة وتتفادى الغلو والتشدد، وتؤكد على التيسير والترخيص، وتضع التسامح في مقدمة التجربة الدينية الطاردة للتمييز والإقصاء، وتدرج نص الوحي ضمن حركة التاريخ من أجل التقدم، وجعل قوة الرحمة طاقة أخلاقية تضفي الشرعية على المرجعية السياسية التعاونية.

لكن كيف يتسنى للبشر أن يعرفوا مصيرهم الروحي في مجموع الوقائع المادية التي تهيمن عليها العلوم إذا ما تشكل الدين عند الكائنات البشرية بسبب الخوف الذي ينتابهم من القوى الغامضة والحاجة لتهدئته؟

المصادر والمراجع:

1- André Comte-Sponville, *l'esprit de l'athéisme, introduction à une spiritualité sans Dieu*, édition Albin Michel, Paris, 2006.

2- Berger (Peter), *la religion dans la conscience moderne,* essai d'analyse culturelle, 1967-1969, traduit de l'anglais par Joseph Feisthauer, édition du centurion, 1971.

3- Bruch (Jean-louis), *la philosophie religieuse de Kant,* éditions Aubier- Montaigne, Paris, 1968.

4- Nabert Jean, *essai sur le mal*, édition PUF, Paris, 1955.

5- *Notions philosophiques,* religion, dirigé par sylvain Auroux, partie 2, éditions PUF, Paris, 1990.

6- *Herméneutique de la sécularisation*, aux soins de Enrico Castelli, Aubier, éditions Montaigne, 1976. Actes du colloque organisé par le centre international d'études humanistes et par l'institut d'études philosophiques de Rome.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018